

نداء

إلى المواطن في الشرقية (في غمرة الانقسام)

أخي في الشرقية

ما كان في تصوّر أحد أن يفعل إنسان بأخيه الإنسان ما فعل أولئك الجلّادون بأبناء جلدتهم باسم الوطن والوطنية والسيادة والحرية.

صدق من قال: إنك تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت أو كل الناس بعض الوقت. ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت.

حاولوا خداع الناس بشعاراتهم الزائفة فنجحوا مع بعض الناس لبعض الوقت، ولكن أمرهم كان لا بد في نهاية المطاف أن يفضح. وكانوا هم أنفسهم كفلاء بكشف النقاب عن خبايا أنفسهم. ولكن ويا للأسف على حساب كمية من الشقاء والمعاناة للناس لا يمكن أن يرتضيها حتى العدو لعدوه.

أخي في الشرقية

خاطبتك ذات مرة بالقول إنك لن تسمع مني قرعاً لطبول الحرب... عاهدتك بالأعلن حرباً عليك، وأردفتُ قائلاً إنني مع ذلك لا أضمن لك أن الحرب لن تنفجر في وجهي ووجهك ذلك لأن تجارب الأزمة تشهد بأن

الحروب في لبنان قلّما تُعلن وكثيراً ما تنفجر، وأن لا ضمان للسلام والاستقرار إلا بالوفاق والوحدة. وما خطر في بال أحد أن رياح الحرب المجنونة يمكن أن تهبّ عليك ممن كانوا يتشدقون بحمايتك.

إننا، أمام هول المأساة التي صاغها أولئك الجلّادون لشعبهم، لا نغالي إذا قلنا إن في لبنان وحوشاً تخطر بين الناس كالبشر.

أجل... ليس من البشر أولئك الذين يقطعون الأيدي التي كانت تصفّق لهم، ويخفقون الأصوات التي كانت تدوّي بحمدهم وتمجيدهم.

ليس من البشر أولئك الذين يستبيحون هدم عاصمتهم لمرة ثامنة أو تاسعة، أو أولئك الذين يستسيغون اغتيال أمن مجتمعهم ألف مرة، ليبقى أمن مصالحهم وطموحاتهم وشهواتهم فوق كل اعتبار.

نحن مع الناس ضد كل هؤلاء.

نحن مع الضحايا ضد جلادهم..

نحن مع المسحوقين ضد ساحقيهم.

نحن مع لبنان القضية ضد كل من يريد مطية.

نحن معك يا أخي في الشرقية. كلنا معك، نشاطرك الهمّ والحزن والقلق والغضب... أجل والغضب.

من حقك أن تنفجر غضباً حينما تهبط عليك عبر موجات الأثير، وتزدحم على مسامعك، مزاعم بطولاتهم وانتصاراتهم وإنجازاتهم.

إننا نبحث معك عن معنى لبطولاتهم، فلا نرى له أثراً إلا في أحلامهم وأوهامهم وأخاديعهم.

ونبحث عن معنى انتصاراتهم فلا نعثر على ثمرة لها إلا في إذلالك وقهرك وإيلامك.

شعاراتهم في حجم الوطن والمصير. أما إنجازاتهم ففي حجم الحي والشارع والبنية.

بنوا أمجادهم على مقولة حمايتك والذود عن حياض الوطن وسيادته،
وعليك الآن، ويا للمفارقة، أن تهلّل وتصقّق كلما تقدم أحدهم على الآخر في
هذا الحي أو ذاك الشارع أو تلك البناية ولو على أشلاء البشر وحطام الحجر،
أو كلما سجل أحدهم تفوّقاً على الآخر بالنقاط، أي بعدد الضحايا الذين
تحصدهم ناره ولو كانوا من صفوف الأمنيين والأبرياء.

إلى الخارجين على الشرعية والقانون نقول إن حبل العصيان قصير، وإن
أحداً ممن أمسك به أو راهن عليه لم يسلم في تاريخ الأمم. وها هو قد بلغ
مداه ودقت ساعة الحساب.

وإذا كان التمرد على الشرعية جريمة، فتسخير أدوات الشرعية في محاربتها
ومحاربة الناس يعادل ألف جريمة.

إن الذين يُقحمون بعض الجيش في صراع وحشي مع الشرعية والشعب
سيكتشفون أنهم حفروا حفرة سيكونون هم لا محالة أول الساقطين فيها.
فالجيش لن يكون إلا على مستوى الرهان المعقود عليه: واحداً تحت لواء
الشرعية القادرة والعادلة، واحداً في الذود عن وحدة المجتمع ووحدة الوطن.
وهو لن يرحم الذين حاولوا ويحاولون التغيرير ببعضه ليدفعوا به في غير طريقه
الوطني.

أخي في الشرقية.

لن ندخر وسعاً للتخفيف من آلامك ومعاناتك ومن أجل إنقاذك من
المحنة.

موعدنا معك في لبنان الواحد الموحد، في مسيرة الوفاق والسلام والبناء،
على طريق مستقبل زاهر أفضل.

وكل آتٍ قريب.

من كتاب «على طريق الجمهورية الجديدة، ١٩٩١».